

بطولة الهامش

صالح زياد

بإزاء الشخصيات التاريخية والبطولية حيث الدلالة المبنية على الضد، بالانسحاق والإفلاس والنفى والحيرة... في المدى الذي عمق الوعي بمساوية الوجود الاجتماعي والكوني في شعرنا الحديث، فقد برزت مجموعة من الشخصيات العادية والبسيطة والهامشية أو الشعبية، في صيغة درامية ذات نفس ملحمي، سواء من وجهة البطولة والجدية والتفخيم، أم من الوجهة السردية. وهي شخصيات تأخذ بعد الحاضر والواقعي من حيث الهموم المحدودة، وانتفاء الأفكار الضخمة والطموحات الباذخة، ومن حيث اليومي والنثري الذي يختلف عن سجل الذاكرة التاريخية، ويغيب عن عين الثقافة العاملة المكرسة لشخصيات تكاد تنتفي عنها الصفة البشرية، وسياق من الرزانة والرصانة لا ينفصل عن معاني الرجولة والذكورة ذات الاستبداد والوثوق والقطعية.

وليس غريباً، في هذا الصدد، أن تبرز -مثلاً- شخصية الرجل الأسود المنذور -اجتماعياً- للخدمة والتسالية، مثلما تبرز شخصية المرأة المنذورة -اجتماعياً- للبيت والإنجاب، وشخصية الطفل الذي يأخذ -في المعتاد- رتبة الهامشي والدوني والأقل!. فكل منهم لم يتحدث عنه الشعر في ما مضى، كما لم يدونه التأريخ. وحفاوة الشعر الحديث به هي - إذاً - جزء من دلالة الالتفات إلى الواقعي والبشري والشعبي التي يفلت بها الشعر من قبضة الذات الكلاسيكية والرومانسية في مركزيتها وجزئيتها ومثاليته؛ فلم يعد، منها، إلا "الرجال الجوف" و "الأرض الخراب" إن سمعنا جيداً ما قاله إليوت.

إن المرأة دال الأرض الولود، ودال الخصب والامتلاء، فيها تمثّل الأمومة التي تتجسد بها المعاني النقيضة لليتم والفقد والحرمان، وبها تكتسب الأشياء دفئها وإنسانيتها وحصنها الرؤوم، ومنها يتفجر الحلم ويرف الأمل في الحياة والإيمان بها، وهي المعاني التي اكتشف الإنسان الحديث - لاسيما العربي- أنه ضحية لفقدائها، وأن العالم فقير إليها. ولا تختلف عن ذلك الحفاوة بالرجل الأسود؛ فهو دال المعنى الإنساني ودال التمايز لا التمييز، وهو قرين الدلالة على الجمهور والعموم، والدلالة على الإبداع والصناعة والإنتاج. وهي معان تجعله أكثر صلة بالأرض وتجذراً، وأكثر دلالة

في الإعلان عن القطيعة مع الاستعلاء والرغبة في دحض خطاب الخصوص والامتياز الفردي والاجتماعي.

وأحسب أن الطفولة في اكتنازها بوعد المستقبل، أو كثافة معاني البراءة والشفافية والرغبة في المعرفة أو التأشير على الضحية للضمير الملوث والثقافة الفتاكة وغريزة الاستبداد والقمع والتعصب، هي قرين كل دلالة على العموم، في مداه الإنساني وفي مدارات نشدانه للمعرفة والعدل والجمال.

والأمثلة الشعرية كثيرة؛ فالرجل الأسود الذي يحتفي به - مثلاً - سعد الحميدين في شخص "مرجان" ومحمد جبر الحربي في شخص "قاسم الأسود" هو قرين الحفاوة بطفل أو طفلة كـ "هوازن" عند محمد الثبيتي، و "صبا" عند محمد جبر الحربي، و "ضياء" عند مسفر الغامدي. وهو المدار نفسه الذي تبرز فيه نساء ملحميات من قبيل "فاطمة" و "فضة" و "مليحة" عند عبد الله الصيخان، و "خديجة" عند محمد جبر الحربي، و "رقية" عند علي با فقية، و "عائشة" و "فضة" عند علي الحازمي... إلخ.

"مرجان" هو اسم الرجل الأسود "الحبشي" الذي يغدو محور قصيدة بالعنوان نفسه عند الحميدين. والقصيدة تقدم "مرجان" في مشهد درامي يجسد بالصوت والحركة والوصف والخبر دلالة مرجان من زاوية معينة للنظر، وبتنام سردي لرواية حدث، يعلن الشاعر - منذ البدء - شهادته عليه.

ويتبدئ مرجان في مشهد القصيدة من إعلان العيد؛ إذ يأتي:

مشعاب في يمناه

وعلى الخصر حزام الأظلاف

شد كقفل أبدي

يعد الخطوة.. والأخرى

والجسم يروج بأنغام الطميرة المخزومة..

كش... كش

كش... كش

ك... ش

"يا سيدي والعيد جانا

يا سيدي وابغى الغبانا".

ويؤدي مشهد مرجان هذا إلى هياج وصراخ من الصبية في الأبواب وفي الشرفات تدعو مرجان. وينتقل مرجان بين باب وآخر، يهز الطمبة ويردد الغناء. مشهد مرجان، محاطاً بجمهور الغناء والرقص في الشارع، يراوح مع مشاهد النوافذ والأبواب، حيث الاحتشاد والتفاعل مع مرجان. ويأتي -حين الاشتعال بالطرب- تجسيد صوت مرجان بلكنته "يا تيدي والييد دانا.. يا تيدي وابقا القباننا" دالاً - في حب وحفاوة - على وجوده وتنويعه لوحدة العدد بقدر توحيده لتنوعه، فيما تتكرر حركة الطمبة والهز:

مرجان يهز..

والطفل يهز..

والطفلة تمثف جدلانة:

"جانا العيد"

يا سيدي والعيد جاننا"

هكذا استبد مرجان بطولة القصيدة، وهيمن على المشهد، في دلالة مرسومة لمعنى البطولة لا ينفصل عن لغة الحفاوة وعلامات الإعجاب التي أحاطت القصيدة بها مرجان. في آخر القصيدة يعود مرجان إلى عزلته، ويخرج من الضوء إلى الهامش، مخلفاً عودة الحياة إلى سيرتها الرتيبة وفضائها الموبوء بفقدان الفرح والبهجة، وكأنها تنتظر مرجان وتحلم أن يعود صانعاً لفضاء يغسله الغناء ويظهره هذا البسيط والبريء من كل ما يناقض البساطة والعفوية.

ولا شك أن بصمة سعد الحميدين، هنا، ذات تفرد وامتياز، وهي علامة باتت مظهراً مألوفاً في شعره الذي ينطق الشخصيات الشعبية والهامشية ويفسح لغته للفضاء الشفهي والعامي ومظاهر وطقوس الحياة بعيداً عما ألفناه مكرساً في ثقافتنا الرسمية والعامة. لكن المتأمل سيجد هذا المظهر ممتداً إلى مساحات أخرى في الشعر السعودي، وبكيفيات أخرى لا تختلف في عمقها عن الدلالة التي نقرأ بها مرجان بعيداً عن منظور التسلية والتعجيب. إنه البحث عن معان إنسانية أو بالأحرى إنه تمثيلها وروايتها والدلالة عليها، وتلك هي بطولة الهامش الذي غفلت عنه الثقافة.